# ٧ الفصل السابع

# تجربة مصر التحديثية والحركات الاصلاحية العربية

## ١- مصر: تكوين الدولة وبناء المجتمع المصري الحديث

### مقدمة:

لقد نجح محمد علي باشا في بناء دولة كان لها مؤسساتها السياسية- فيما بعد- وخططها للمستقبل. وكان يتمتع بطول عهده الذي يقترب من نصف قرن، بحس براغماتي، إذ خلق توازناً حقيقيا بين اللامركزية الادارية- العثمانية والاستقلال الذاتي - المصري، بحيث حقّق استقراراً سياسيّاً على نطاق واسع.. اتاح له تنفيذ برامجه في البناء الاقتصادي والثقافي والاجتماعي. وقبل هذا وذلك، عمل على تطوير آلياته وعناصرها العسكرية التي خدمته ليس في الدفاع عن كيانه السياسي، وإنما في التوسع على أطراف عديدة.

يعّد استقلال مصر محمد علي باشا عن الدولة العثمانية اول انجاز كبير أكسبه المزيد من الشرعية السياسية والتاريخية، بل، وكان تهديده لعاصمة اسطنبول بمثابة إثارة سياسية أرعبت اوروبا، وقد سارعت الى نجدة «الرجل المريض» الذي كانت تركيا العثمانية تمثله اصدق تمثيل.. كما وكان ذلك كلّه بمثابة دلالة تاريخية بالغة في خضم التكوين السياسي الحديث لمصر، فضلاً عن ان محمد علي باشا قد وفّر مناخاً سياسياً في مصر مستقلاً عن الدولة العثمانية. من خلال التمثيل الدوبلوماسي، والبعثات السياسية، وتوقيع المعاهدات، واتخاذ القرارات الفعّالة. وقد جرى كل ذلك بعد القضاء على الاجهزة والعناصر القديمة، وكان على رأسها. المماليك والمشايخ وزعماء البلاد...

وقد استطاع محمد علي باشا أن يقّرب وجهات النظر بالاعتماد على ملاكات جديدة في الاجهزة الحديثة التي بناها، فضلاً عن استعانته بالاقباط، واستخدامه للوسائل التي كانت تخدم واقعه السياسي والاجتماعي، ومنها: اصداره لجريدة «الوقائع المصرية» التي صدرت باللغة التركية، فعندما وجد ان ليس هناك مستقبل لتركية في مصر، اصدرها باللغة العربية، واتّخذ هذه اللغة، لغة رسمية في اجهزة دولته كافة. واستعان ايضاً بالخبرات الاوربية المتفوّقة في بناء اجهزة دولته ومجتمعه معاً، ويمكننا الوقوف عند ابرز الاجراءات التي اتخذها في بناء الدولة :-

## الاجراءات والخطط التحديثية:-

### ١/ المؤسسة العسكرية:-

إن ابرز الميادين التي شغلتها اجراءات محمد علي العسكرية هو الجيش الذي عده دعامة أساسية في ترسيخ التكوين السياسي- المصري وبناء دولته الحديثة. كوسيلة فعّالة في التوسع والامتداد على اطراف عديدة، فنجح في تطوير جيشه العربي وتقوية اسطوله البحري، إذ أدخل الاسلحة الحديثة، وطبّق التدريبات الاوروبية مستفيداً من خبرات فرنسا بهذا الخصوص، وذلك باستضافته بعثة عسكرية فرنسية رسمية لتدريب جيشه، كما استعانَ بخبرات فرنسية اخرى في التنظيم العسكري، وانخرط الآلاف من المصريين والسودانيين في التدريب الذي اشرف عليه ضابط فرنسي لقبه المصريون بـ«سليمان باشا الفرنساوي».

قام محمد علي باشا ايضاً بفتح المدارس الحربية، وإعداد الملاكات القيادية- المصرية، واهتم بمدارس المشاة والخيّالة والمدفعية، فضلاً عن انشائه كلية عسكرية في مصر. وفي عام ١٨٢٦م، انشأ اكاديمية للاركان العامة، وأسس عدداً من المصانع الحربية للمدافع والبنادق الحربية التي طوّرها الشباب المصري الذي درس فن بناء السفن في اوروبا، وتدّرب الآلاف من المصريين على فنون القتال في البحر بعد دراستهم في المدرسة البحرية العسكرية.. وترجمت الانظمة والتعليمات العسكرية الفرنسية الى اللغة العربية، واستخدمت في انشاء ذلك الجيش المصري النظامي الكبير الذي كانت القوة الالبانية نواته الاولى؛ ثم تّم تجنيد الفلاحين المصريين وقد احرز محمد علي باشا من خلالهم انتصاراته في بلاد الشام.

لقد اتسع حجم جيش محمد علي باشا اتساعاً كبيراً، لكي يبلغ ١٨٠ الف جندي نظامي، وبلغ عدد القوات غير النظامية، حوالي ٤٠ الف مقاتل، في حين بلغ الاسطول البحري قرابة ٥٠ قطعة بحرية، وفضلاً عن كل ذلك فقد قام محمد علي باشا بتشييد عدد كبير من الحصون والثكنات والمعسكرات، اضافة الى تعميده القلاع القديمة

لقد خطط محمد علي باشا سياسياً في بناء مؤسسته العسكرية الحديثة التي استعان بالخبرات الفرنسية لتدريب جيش ضخم لم يقتصر على المصريين فحسب، بل شمل الافارقة والسودانيين. ولم يأت ذلك البناء الا بعد اجراءاته التحديثية في التحولات الاجتماعية التي تغيرت بعدها البنية الاقطاعية. لقد بدأ بمحاولاته في التغيير الاجتماعي سبلاً من سبل تكوين الدولة الحديثة، وليس العكس مستفيداً من التجربة التاريخية المريرة التي وقع فيها السلطان سليم الثالث و مصطفى باشا البيرقدار اللذان ذهبا ضحية عام ١٨٠٨م على أيدي مراكز القوى الرجعية، وعلى رأسها الانكشارية التي كانت تمثل روح القرون الوسطى واعرافها، يقابلها بالمثل في مصر اولئك المماليك الذين استطاع محمد علي باشا بذكائه أن يتغدى بهم قبل ان يتعشوا به. اما مثله الاعلى في التحديث الشرقي، فكان القيصر بطرس الاكبر، اذ كان يحلو له تشبيه نفسه بمصلح روسيا العظيم، وقد رسم المزيد من اعماله على نفس الخطى التي خطاها بطرس الاكبر، وهي خطة تقدمية في كل الاحوال.

## ٢ / الاستحداثات الادارية:

أما الاجراءات الادارية التي مارسها محمد علي باشا، فقد كانت جزءاً اساسياً في عملية تكوين الدولة الحديثة، ولم تزل الممارسات البيروقراطية في مصر حتى يومنا هذا. لقد الغى محمدعلي باشا التشكيلات الادارية القديمة التي عاشت قروناً طويلة على امتداد العهود العثمانية، وأعاد تنظيم جهاز الدولة على نحو تجديدي بتشكيلات حديثة...

كانت مصر احدى الولايات العربية التابعة للامبراطورية العثمانية، وبين محمد علي باشا والياً يخضع للسلطان العثماني دون ان يعلن استقلاله رسمياً، وبقي يحمل رتبة «الباشوية»، ويحتفظ بقناع الولاء التقليدي ضمن اطار الاحكام اللامركزية العثمانية، لكنه لم يكن ينفذ اوامر الباب العالي، إذ يتجاهل كلّ ما لم يتفق ومصالحه.. فغدت مصر دولة لها استقلالها الواقعي والرسمي، اذ كانت

تمتلك حكومة وجيشاً وقوانين وانظمة متنوعة خاصة بتسيير واقعها السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وعلى الرغم من دفع محمد علي باشا ضرائب سنوية الى السلطان تقدر بـ ٣٪ من مجموع نفقات ميزانية الدولة، فقد بقي يتسلم من السلطان العثماني التقليد المتعارف عليه، وبقي ذكر السلطان سارياً في خطبة الجمعة والعيدين.

لقد اهتم محمد علي باشا بـ «الادارة»، فاستحدث مصطلح «المديرية» التي تقابل اليوم مصطلح «المحافظة». وظهر مصطلح «رئيس المركز» الذي يعني باشرافه الى القصبات والقرى، وهناك مصطلح «الحكمدار» الذي يعد حاكما عسكرياً ومدنياً في الاقاليم التي تستولي عليها مصر من غير اراضيها.

كانت الحياة الادارية في مصر قد تعقّدت كثيراً باجهزتها وعناصرها على عهد محمد علي باشا، إذ أثرت التغييرات الاقتصادية والتحولات الاجتماعية على طبيعة الادارة والنظام المالي، فضلاً عن التوسع في الجيش وتشكيلاته المرتبطة بالادارة العسكرية المنفصلة عن الادارة المدنية، وكل هذا شيء جديد على الحياة المصرية العثمانية. واستفاد محمد علي باشا من معطيات خططه وتطبيقاته في مجالات اخرى، إذ استطاعت المدارس والمعاهد المصرية الحديثة ان تخرج في أروقتها شبابا كفوءاً كان يتطلبهم الجهاز الحكومي وتحتاجهم التشكيلات الادارية المتنوعة التي اخذت تزداد يوماً بعد آخر.

ألّف محمد علي باشا مجلساً للحكومة اسماه «الديوان العالي» ومقره في القلعة وكسلطة تنفيذية في البلاد، وألف بعد ذلك مجلساً اسماه «المجلس العالي» يتكون من «نظار» (مديري) الدواوين وكبار رجال مصر، واثنين من العلماء يختارهم شيخ الجامع الازهر، فضلاً عن اثنين من التجار يختارهما كبير تجار القاهرة. لقد الغى محمد علي باشا اكثر تلك «المجالس» لأنه وجد انها لم تؤد واجباتها بالصورة المثلى، ثم اصدر لائحته الادارية الشهيرة بـ «القانون الاساسي» (= قانونامه سي) في سنة ١٨٣٧م، وبرزت التشكيلة الحكومية التنفيذية متركزة بسبعة دواوين (=وزارات)، هي:

١- ديوان الخديوي (= وزارة الداخلية)، ويختص بالشؤون الامنية والشرطة والتحقيق.

٢- ديوان الايرادات (= وزارة المالية).

٣- ديوان الجهادية (= وزارة الحربية).

٤- ديوان البحر (= وزارة البحرية).

٥- ديوان المدارس العام (= وزارة التربية)

٦- ديوان التجارة (= وزارة التجارة).

٧- ديوان الفاوريقات : الفابريكات (= وزارة الصناعة).

يقف على رأس كل ديوان من تلك الدواوين ، «مدير» يقدم تقريره الاسبوعي عن أوضاع مالية، وكشف بالحسابات.

لقد استطاع محمد علي باشا ان يحل مشكلة الملاكات الوظيفية في التشكيلات الادارية بالاعتماد على المصريين بديلاً عن الاتراك والمماليك الذين كانوا ينتشرون كبكوات وكشاف وموظفين، وهم يمارسون اعمالهم باستبدادية وعنف. وكان محمد علي باشا قد انشأ جهازاً ادارياً مركزياً يرتبط بقصره. اما وزاراته فقد أقرها على النمط الاوروبي محددا وظائف وواجبات كل وزارة (= ديوان) . وقد استحدث فيما بعد ديواناً للخارجية ... وفي كل ديوان مجالس تنظر في القضايا الخاصة.

قسم محمد علي باشا مصر الى اقاليم عدة (= سبع مديريات)، يترأس كل واحدة منها، مدير لمركزية مصر الاقليمية، وتقسم المديرية الى «مراكز» يترأس كل مركز منها «مأمور». أما الوحدات الادارية الاصغر، فيطلق عليها «الناحية» ، ويترأسها «الناظر» والناحية تتكون من وحدات اصغر، هي «القرى» . ويقف على رأس كل قرية «الشيخ» و «العمدة»..

هكذا استطاع محمد علي باشا أن يرسي قاعدة راسخة للادارة المصرية في العصر الحديث، وتسيطر حكومته على كامل التراب المصري، وقد نجح هو نفسه في ادارة جميع حلقات جهاز الدولة.

نستنتج أن محمد علي باشا قد نجح في مشروعه لتحديث الحياة الادارية بمصر. على النمط الاوروبي الفرنجي، وقد تهيأت له ملاكات من المثقفين

البورجوازيين الذين استخدموا في عملية جعل مصر : دولة حديثة وعلى النمط الاوروبي *.

ولكن؟

اعتمد محمد علي باشا في توزيع المناصب العليا والمهمة على اولاده وعلى افراد عائلته واصهاره واتباعه المقربين الذين أغدق عليهم الأموال والاقطاعات بعد أن تخلصت تلك المناصب من سيطرة الاقليات كاليهود والاقباط والشوام والعلوج... (العلوج : هم الاوربيون الذين اسلموا). وكان ابراهيم باشا قد اصبح دفتردار للولاية، فأنهى بذلك احتكارات الاقليات، ثم نقل الى حاكمية الصعيد، ثم ولاه (ابوه) محمد علي باشا قيادة الحملة المصرية نحو بلاد الشام.

٣/ التحولات الاقتصادية والاجتماعية:-

عدّ محمد علي باشا «الأرض» مصدر الثروة الاساسية في تحقيق الرخاء الاقتصادي والرفاه المادي للبلاد، لذا كان هذا الرجل من ابرز زعماء العصر الحديث يشجّع الزراعة ويطور نظام الري، ويدخل محصولات جديدة الى البلاد. لقد بدأ مشروعه في البناء الاقتصادي والاصلاح الزراعي من خلال سحقه للنظام الاقتصادي القديم، وانزاله ضربات قاضية بملكية الأرض للملتزمين والمماليك ... اذ قام في عام ١٨٠٨م بمصادرة املاك الملتزمين الذين امتنعوا عن دفع الضرائب. وفي عام ١٨٠٩م حرمهم من نصف الفائض. وفي عام ١٨١٢م أمم الاراضي، ووضع يده على جميع مساحاتها التي كانت في حوزة المماليك، وفي عام ١٨١٤م الغى نظام الالتزام بكامله بشكل قطعي، فصار الفلاحون يدفعون الضرائب الى الدولة مباشرة، لا الى الملتزمين، فقضى على التبعية الاقطاعية القاسية، ورق الالتزام.

الغى محمد علي باشا نظام الالتزام وعوّض الملتزمين كثيراً، وبدأ باعادة تنظيم الارض وتوزيعها، فصادر الاواسي (= وهي الأرض المعفاة من الضرائب)، واستولى على اراضي الرزقة (= المعطاة لكبار رجال الدولة)، واراضي الأثر ( الموروثة) ... ولكنه لم يتعرض للابعاديات (= الاراضي البور التي استصلحها اصحابها شرط الا ينقل حق الانتفاع بها لغير الورثة الشرعيين). وأجرى مسحا

---

* راجع ما كتبه كل من المؤرخين . دودويل ودوين وهولت وعفاف لطفي السيد وستانفورد شو

شاملاً للارض الزراعية عام ١٨١٣م، ثم بدأ بتوزيعها على الذين باستطاعتهم استثمارها وشملهم بحق التصرف والنفعة بها لا حق التملك لها.

هكذا، اعاد توزيع الاراضي الزراعية على الفلاحين، فأعطى كلا منهم خمسة أفدنه لاستثمارها، ولكن حسب الاسس والتعليمات التي تقررها الدولة التي لها حق استرجاع الارض اذا عجز الفلاح عن استغلالها استغلالاً أمثل، أو عجز عن دفع الضرائب المترتبة عليها، فضلاً عن ان الدولة هي التي حددت نوعية الزراعات لكل منطقة واقليم، وعند جني المحاصيل، فان الدولة تتسلمها وتخزنها بعد ان تأخذ حصصها نظير الضرائب المقررة، ثم تقوم بشراء الباقي باسعار تقررها هي دون ان تصل الى اسعارها الحقيقية، فتقوم ببيعها الى التجار الاجانب بتلك الاسعار الحقيقية، فتحقق ارباحاً كبرى.

يعد الغاء الالتزام في مصر من ابرز الانجازات في تحديث المجتمع المصري، اذ شعر الفلاح ولأول مرة انه عضو في دولة ومجتمع.. ولكن أفسحت الدولة المجال لتبلور طبقة جديدة في المجتمع المصري هي الطبقة الارستقراطية من الملاكين والاقطاعيين المحدثين والذين قدر لهم ان يقوموا بدور خطير في تاريخ مصر الحديث على مدى (١٥٠) سنة، أي خلال عهود أسرة محمد علي باشا، لم يسمح محمد علي باشا في بداية مشروعة ببنائه الاقتصادي، ان تكون هناك ملكيات واسعة حتى لا تقوم طبقة من المالكين والاقطاعيين. وكان يعد نفسه وحده هو المالك الحقيقي لمعظم اراضي مصر وزراعاتها، واحتكار ارباحها باسم «الدولة»، وأراد تخفيف هذا النظام الذي حمله على كاهله لوحده، فبدأ بتحويل الاراضي الاميرية الى أراض خاصة مرة أخرى.. ففي الثلاثينات بدءا من كانون الأول / ديسمبر عام ١٨٢٩، أخذ محمد علي باشا يوزع الاراضي الاميرية على نحو واسع على اقاربه ومقربيه وكبار الاعيان والموظفين وافراد اسرته وضباط الوحدات الالبانية والكردية والجركسية والتركية فسميت الاراضي الزراعية الممنوحة لافراد اسرته باسم «جفالك» (ومعناها في التركية: «ملك»)، واعفيت من الضرائب، وتعطي بها وثائق تسمى «تقاسيط» أو حجج محررّة في المحاكم الشرعية. أما الاراضي الزراعية الممنوحة لحاشيته وكبار موظفيه وقواده المخلصين، فسميت بـ «الابعاديات» وذلك لانها مستبعدة عن المسح.

لقد استطاع محمد علي ان يطور الزراعة، ويزيد من المساحات المزروعة، فأنشأ ديواناً(= وزارة) للزراعة عام ١٨١٥م، لكي يشرف على تنظيم الزراعة واستغلال الوادي الجديد، واصلح الارض، وحفر اكثر من الف ترعة وساقية، وزرع اشجاراً ونباتات جديدة... وجمع المزارعين في «كفور» (= قرى)، كما جلب اناساً من بلاد الشام في تطوير مشروعه التحديثي.. كما وأدخل زراعة المحاصيل الجديدة التي لها استراتيجيتها الاقتصادية والمدرّة عليه عملات اجنبية، مثل القطن. كما واهتم بالزراعة الصيفية المروية السيقية، واستحدث نظام القروض للمزارعين اموالاً وبذوراً. واحتاجت الزراعات الجديدة الى توفير المياه، فبدأ بشق العشرات من الترع، ومن أهمها: ترعة المحمودية، وسخّر ثلث مليون فلاح في العمل، حتى مات الكثيرون من شدة التعب والبرد.

لقد غدا الفلاحون يوماً بعد أخر برفقة اراضيهم التي يقطنونها ويزرعونها منذ مئات السنين، من جملة الاملاك التي حصل عليها الاقطاعيون الجدد الذين صاروا يدفعون ضريبة «العشر»، فاشتق منها مصطلح «العشرية» فيما بعد. ونستنتج ان محمد علي باشا الذي قضى على الملتزمين والمماليك والطبقة الاقطاعية القديمة قام بتأسيس طبقة جديدة من النبلاء الاقطاعيين المنتمين لنظامه والذين عدوا سنداً للاسرة الحاكمة التي ارسى قواعد حكمها محمد علي باشا، ولكن البقايا المملوكة المبعثرة التي سكنت القاهرة بقيت تتأسّى على ممتلكاتها الضائعة وسلطاتها المفقودة، ولم تنفع عملياتهم وعصيانهم لاعادة النظام الاقطاعي القديم للمماليك.

هكذا، نجح محمد علي باشا في اجراءاته تلك، وحقق المزيد من التحولات الواسعة في مصر كبلد زراعي في المقام الأول، موفراً لمشروعه الاستراتيجي الادوات والوسائل، ومنها: أساليب الري واستصلاح الأراضي، وتصدير المحاصيل.. ساعدته جميعها في انتاج سلع محلية، وتطوير مرافق اخرى في الحياة المصرية الحديثة.

أما بشأن التطوير الصناعي فقد حدثت انتقالات اجتماعية واقتصادية في الآليات الحرفية والمهن المرتبطة بها الى ورشات كبيرة ومصانع يدوية عرفت بـ (المانيفا توارث)، وهناك شيّدت ايضا معامل لصب المعادن والحدادة في مدينتي

القاهرة ورشيد، فضلاً عن مصانع للاسلحة على غرار المصانع الفرنسية، ومصانع نترات البوتاس والبارود، وهناك الانسجة من القطن والكتان اضافة الى الاجواخ والحبال والطرابيش.. ومصانع للسكر والالبان. وتعود ملكية تلك المصانع لاحدى قوتين كبريين في مصر؛ الدولة او لافراد الاسرة المالكة.

وقد استفادت الحلقات الصناعية في مصر كثيراً من التطور في الانتاجية الزراعية، وخاصة القطن والسكر الى حد بعيد. وكان للقطن المصري قيمة دولية كبيرة في السوق العالمية .. فضلاً عن بقاء الانتاج الحرفي في المدن المصرية. فكان أن اصبحت الحكومة تسيطر على الانتاجية متعددة الرؤوس والميادين الزراعية والحرفية والصناعية. وقد تحققت السيطرة تلك من جراء فرض نظام للاحتكارات اذ يعد جهازا له طابعه الخاص في التنظيم والمركزية الادارية في حياة البلاد الاقتصادية. وقد جاء تكوين نظام الاحتكارات في الاساس على مدى اربع سنوات للفترة ١٨١٦ - ١٨٢٠م. وكان له مساوئه بالنسبة للفلاحين والحرفيين الذي تضوّروا جوعاً بسببه، في حين بدأ يدّر بايرادات خيالية على الحكومة المصرية، فمنحها إمكانات ضخمة في بناء جيش مسلّح وأسطول قوي... فضلاً عن الفوائد التي جناها التجار من جراء احتكار البضائع بالجملة.

اما الحالة الاجتماعية المصرية فيكفي ان نقول ان جملة هذه التطورات في الميادين كافة قد أثرت بدون شك في مختلف الشرائح الاجتماعية سلباً وايجاباً نسبة الى الموقع الاجتماعي للافراد والجماعات والوحدات الاجتماعية، فضلاً عن نوعية العمل وطبيعة التعامل بين الحكومة والشعب. اي نوع العلاقة بين الدولة والمجتمع. ولقد كانت احوال مصر الاجتماعية قد سبقت غيرها من الاقاليم العربية في الشروط الموضوعية التي حكمتها من جراء التحولات السياسية والتحديثية التي جاء تحقيقها على حساب الشغيلة والمزارعين والحرفيين الذين بدأوا يعيشون ظروفاً صعبة، بل ويكابدون مشقات اكبر مما كانت تتعرض له البروليتاريا الصناعية - الاوروبية.

كانت البضائع في مصر محمد علي باشا اشبه بثكنات ومعسكرات تتبع فيها اساليب وانظمة وتعليمات صارمة. وكان العمال منظمين في فصائل وسرايا وكتائب. وهم يخضعون لامراء وزعماء يلزمون باجراء التمارين العسكرية بعد انتهاء العمل. كانت الاجور زهيدة، وحياة اغلبهم بائسة، ولم تكن تلك أوضاع الفلاح المصري بأحسن حالاً مما تقدم آنفاً، اذ لم يجر اي تحسن على أوضاعه مذ

تخلص من البكوات المماليك والملتزمين والسباهية وضرائبهم الباهظة والبغيضة ... لم ينتشل من أوضاعه ويحسن من حياته... كان عليه أن يعمل (٦٠) يوماً من كل عام سخرة في اراضي محمد علي باشا وحاشيته ، وازدادت الضرائب بنسب عالية. وغدا الفلاح المصري معرضاً للخدمة العسكرية ومهدداً بخدمه الاحتياط . وامام الضغوط التي كان يمارسها في حياته كان يسلم منتوجاته الى محتكري الحكومة باسعار مخفضة، لأن ليست له الحرية في حق التصرف بمحاصيله ومنتوجاته.

لقد حصلت تمردات في الاوساط الفلاحية في الريف، والحرفية في المدن، بعد ان غدا الكثيرون تحت وطأة مظالم شتى، فلاذ قسم من اللاجئين الى سوريا، وثار قسم آخر، الا ان الحكومة استطاعت ان تقمع الانتفاضات الاجتماعية بالقوة، وخاصة تلك التي حدثت عام ١٨٢٢م، وعام ١٨٢٣م في مدينة المنوفية، وعام ١٨٢٤م في الوجه القبلي، وعام ١٨٢٦م في منطقة تلبيس ... وبرغم ذلك كله فقد بقيت الدولة اقوى كثيراً من تحركات المجتمع ومطالبه الكثيرة*.

### ٤ / التعليم والمدارس وتطوير الثقافة العربية :-

يعود الفضل في ارساء قواعد الثقافة المصرية الحديثة وأسسها الى الاجراءات التي مارسها محمد علي باشا الذي اهتم كثيراً بتطوير التعليم والمدارس على النمط الحديث .... واذا كانت عملياته تلك بهذا الخصوص قد استهدفت تطوير آليات مؤسساته الاخرى العسكرية والمدنية بالكفاءات والمهارات والاساليب الجديدة من لدن حملة الاختصاصات، فان نتائجها قد افادت حركة المجتمع المصري، وطورت فعالياته، ببروز النخب المثقفة، وذوي الاختصاص والمهندسين والموظفين والخبراء، ولا سيما في المدن المصرية. وبدأ هؤلاء يتزايدون على حساب الفئات الازهرية القديمة التي كانت تحمل ثقافة دينية تقليدية فقط، وتمتلك نزوعات محافظة على قيمها واعرافها الاجتماعية الموروثة.

---

* راجع مقارناً ما كتبه: لوتسكي وغرايبه وعمر عبد العزيز عمر وابراهيم خليل احمد والبطريق...

استقدم محمد علي باشا عدداً من المدرسين الاجانب الذين لا يجيدون اللغة العربية فبدأ المجتمع المصري يتعرف على ما هو جديد، بخاصة وان التعليم كان مجانياً، بل ويكافأ الطلبة والتلاميذ بمرتبات شهرية. وأوفد محمد علي باشا العشرات من الشباب المصريين الى اوربا (وعلى الاخص: فرنسا) لدراسة العلوم العسكرية والطبية والهندسة والزراعة واللغات والقوانين. وبدأ المتخصصون من الاساتذة العلماء يترجمون الى اللغة العربية الكتب المتخصصة والمدرسية تمهيداً لتمصير الدراسة، فقد انشئت في عهد محمد علي باشا أول مدرسة للهندسة عام ١٨١٦م، ثم اسست مدرسة للطب عام ١٨٢٧م، واعقبها تأسيسات لمدارس الصيدلة والالسن والصنائع والزراعة والبيطرة، وكلها تنتمي الى «ديوان المدارس» الذي يشرف على المؤسسات والاجهزة التعليمية والتربوية، ويقوم بوضع المناهج واللوائح والقوانين ... واكتمل النظام التعليمي بين سنتي ١٨٣٦- ١٨٤٠م، حين كان في مصر (٥٠) مدرسة ابتدائية وثانويتان، الأولى في القاهرة والثانية في الاسكندرية.

كما اشرف «ديوان المدارس» على نظام البعثات العلمية الى دول أوروبا المختلفة منذ عام ١٨١٣م، وكان للبعثات دور كبير في انتشار الاستنارة والوعي، وغسل الاذهان، والمشاركة في التحديث، وبلورة العصرنة من خلال فعاليات النخب المثقفة والمستفيدة التي عاشت فترة من حياتها في أوروبا واطلاعها على الاساليب الاجتماعية والفكرية الحديثة... وكان ان رجعت الى مصر وشاركت فيها لأول مرة - ايضا - في تاريخها: المدارس العلمانية العامة، ثم المدارس العسكرية والمدارس العليا في الآداب والعلوم والفنون... فضلاً عن نشاط الفئة المستفيدة المصرية في التاليف والترجمة والصحافة والوظائف الحكومية. ثم الممارسات البيروقراطية والتكنوقراطية. وكان قد بلغ عدد الطلبة الذين أرسلهم محمد علي باشا للفترة ١٨١٣- ١٨٤٧م الى دول اوروبا الغربية (٣١٩) طالباً مبعوثاً. وكانت البعثة الاولى تضم فئة من الطلبة الازهريين الذين كان من بينهم رفاعة رافع الطهطاوي (المولود عام ١٨٠٤م) والذي كان له دوره الفعال في بشائر النهضة الفكرية المصرية بعد رجوعه من فرنسا. وهناك علي مبارك ايضاً وغيرهما.

انشأ محمد علي باشا ايضا في عام ١٨٢٢م ولأول مرة في تاريخ مصر داراً للطباعة في بولاق. والتي بدأت بطبع الكتب باللغات العربية والفارسية والتركية.

وصدرت في عهده أول جريدة مصرية هي «الوقائع المصرية» .. واكتسبت مطبعة بولاق شهرة عريضة في ارجاء الوطن العربي. وكان لها دور كبير في ترصين الثقافة العربية والتراث الاسلامي ونشرهما. اما جريدة «الوقائع المصرية» فهي تعد أول جريدة عربية رسمية تصدر في الوطن العربي.. ثم تعددت الصحف المصرية خلال القرن التاسع عشر.

وبفضل ما وصلت اليه مصر من حالة في التطور والتحديث فقد غدت ميداناً فعالاً للهجرة، اذ استقطبت هجرة السوريين اليها في اعقاب مذابح ١٨٦٠م، وخلال عهد السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ – ١٩٠٩م. وقد شارك اولئك السوريون في تطوير الصحافة والآداب العربية في مصر.. وخاصة عندما نعلم بانه ما أن حلّت سنة ١٨٨٢م حتى كان عدد الصحف اليومية في مصر ثلاثاً وثلاثين صحيفة ، ولا تزال احداها وهي جريدة «الاهرام» تصدر حتى يومنا هذا منذ القرن التاسع عشر.

أما المدارس والمعاهد المتخصصة فقد تطورت كثيرا، وكان لها شأن كبير في النهضة الفكرية المصرية والعربية بعامة، وقد اشرف على نظارة تلك المعاهد والتدريس فيها أولئك المصريون الذين رجعوا من أوروبا محملين بثقافة حديثة وتخصصات نادرة وكان من ابرز تلك المدارس هي مدرسة الالسن. وكانت المناهج الدراسية المتبعة هي مناهج عصرية تتفق وطبيعة الحياة العلمية والفكرية التي كانت أوروبا تعيشها.

هكذا، حققت مصر تقدماً بالغاً في هذا الشأن، وسبقت غيرها من الاقاليم والبيئات العربية التي اخذت تتأثر بها شيئاً فشيئاً، ولا سيما وان مشروع محمد علي باشا في هذا المجال قد امتد الى مختلف الميادين العسكرية والمدنية ليكسبها بالمزيد من الكفاءات والتخصصات. ويتفق اغلب المؤرخين على ان الفضل في ذلك كله الى محمد علي باشا الذي يعد اول حاكم شرقي يفكر في ذلك وينفذّه بجدية وفعالية ونشاط وعلى مستوى رصين وباللغة العربية التي لم يكن يجيدها، ولكنه عزّز آدابها وعلومها من خلال مشروعه الثقافي والتعريبي الكبير*.

---

* التفاصيل في : د. جمال الدين الشيّال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، القاهرة، ١٩٥١.

## ٥ / استنتاجات : تقويم تجربة محمد علي باشا

نستنتج أن محمد علي باشا هو أول الحكام في المنطقة الذين آمنوا بفكرة التحديث الشرقي. ومارس عملياتها الأولى في مصر بجد ونشاط. وقد حملت سياسته طابعاً تقدمياً واضحاً، على الرغم مما أوقعه على كاهل شعبه من الضرائب والاعمال. واستطاع الرجل ان يغير الانماط الانتاجية القديمة قليلاً، لكي يزحزح المجتمع المصري من اطره ومرجعياته المنتمية للعصور الوسطى، ويخلّصه من البنية المملوكة ومخلفاتها العتيقة، وخاصة في المدن المصرية المكتظة بالسكان. كما وأنه استطاع ايضا ان يعزز «الدولة» بالتنمية الاقتصادية، والدفاعات العسكرية البرية والبحرية... وصنع جهازاً وظيفياً وأمنياً فعالاً في الداخل، مع ما رافق ذلك من اصلاحات جديدة.

لقد قضى محمد علي باشا على رواسب التفكير عند المثقفين والدارسين الذين اكتسبوا وعياً جديداً. ونجح في بناء مؤسسات تربوية وتعليمية علمانية مستبدلاً بالاساليب القديمة مناهج حديثة، متخذاً من فرنسا مثالا للرقي والازدهار والتطلع والحيوية ... ولكنه كان قاسياً في ممارسة سياسته التوسعية وكان يحلم ببناء امبراطورية واسعة تحمل اسمه وتحتوي على قوميات واقليات عديدة. واتسمت سياسته بالنير والحروب المتواصلة والتوسعات، ومناهضة الدول الكبرى، وبخاصة انكلترا التي وقفت حجر عثرة امام تحقيق طموحاته وآماله وتطلعاته... وقد قوّض حكمه في نهاية الأمر. ولم تحقق مصر الاماني الوطنية والاقليمية التي عاشت عليها زماناً طويلاً!

وفي الجانب الاقتصادي فان محمد علي باشا لم يفرض على مصر نظاماً اقتصادياً معيناً وجديداً تماماً، بل انه حدث النظام القائم ووسع مجالاته. كما ان نظام حكمه كان بمثابة استجابة لمتطلبات ذلك النظام الاقتصادي الذي ولد في مصر خلال القرن الثامن عشر قبل تولي محمد علي باشا السلطة. ان تحديث مصر لم يأت من الفراغ، بل وان الدولة المصرية التي بناها هذا الزعيم لم تولد من ذات نفسها، اذ ان لها سوابق ومرجعيات تاريخية تعود الى القرن الثامن عشر، فقد كان هناك في مصر خلاله حلف قائم بين المماليك والتجار الذين كانوا يحركون بعملياتهم التجارية السوق الدولية في مصر وعلاقتها الاقتصادية بالاراضي والبيئات العثمانية براً، والبيئات الاوروبية بحراً. فأتيح لهم أن يسيطروا على

مساحات شاسعة من الاراضي .. وقد أضفى الصدام مع نابليون بونابرت عاملاً بارزاً آخر في جعل مصر مهيأة للعمليات التحديثية.

لقد كانت تجربة مصر ابان الحملة الفرنسية عليها ١٧٩٨- ١٨٠١م، تجربة حافلة بالتفاعل السلبي والايجابي على حد سواء.. وقبلها كانت تجربة علي بيك الكبير المملوكية الذي كان قد سعى الى اقامة حكومة مركزية مصرية لها شخصيتها المستقلة قليلاً عن لا مركزية البلاط العثماني : حكومة تتمتع بالقانون والنظام ممّا أدّى الى حالة استقرار داخلي كانت مصر قد افتقدته، فقد عاشت حالة صراع داخلي(كالذي وجدناه في دراستنا المتقدمة / الفصل الرابع).

ان كل تلك الدوافع التاريخية جعلت من مصر على عهد محمد علي باشا دولة لها تجاربها التاريخية، وقادتها التطورات الى التوسع في بلاد الشام والحجاز، وتكوين جيش من المرتزقة يستعمل الاسلحة النارية كالمدفعية،. انه برنامج مترابط في حلقاته التاريخية التي لم تتواصل في بيئات عربية اخرى تمتّعت بامكاناتها الاقتصادية وعلاقاتها اللامركزية خلال القرن الثامن عشر اكثر من مصر بالذات!

لقد تطور عدد السكان في مصر – مثلاً – كثيراً حتى وصل في نهاية القرن الثامن عشر الى ٢,٥ مليون نسمة. ونجح محمد علي باشا باستخدام السكان والايرادات في خلق دولة عسكرية ومركز سياسي فعال، متيحاً نصف ايرادات دولته كتخصيصات للجيش واقامة التحصينات وانتاج الاسلحة، واتبع سياسة اقتصادية فعالة وخاصة للاراضي والضرائب .. وان نزعته التحديثية كانت تركز على دعم مركزه الشخصي معتمداً على التصنيع السريع. الذي يتطلّب امكانيات مالية وبشرية غير قليلة.

اما ابرز السلبيات التي رافقت عمليات محمد علي باشا في التحديث الشرقي لمصر فتكمن في ما يأتي :

١٠ فشل تجربته بسبب فرض صناعة حديثة على قاعدة بدائية من جماهير الفلاحين.

٢٠ لم تكن المشاريع المتواضعة لمحمد علي باشا في ميدان التعليم والتخصص كافية لتغطية ما تطلبه التحديث من اجهزة ومرافق وادوات، ولا سيما في الدراستين: الاعدادية والمهنية.

٣. انخفاض المستوى الفني للعمال الذين عجزوا عن استغلال الآلات بكفاءة وجدّية.

٤. التخلف الاجتماعي والثقافي ... كان كفيلاً بعدم انضاج التجربة التحديثية في المجتمع المصري... الذي لم يشهد ظروف تغيير ذهني في حياته، وبناء وعي جديد!

٥. تدعيم محمد علي باشا لمركزه الذاتي من خلال استبداده، وجهله، ونهبه، ولكن ذلك لم يمنعه ان يكون اكثر حكام عصره استنارة ورقياً، فقد استطاع ان يزحزح القوالب القديمة في مصر كي يجعلها دولة حديثة ذات اقتصاد حديث... اثرت في بلورة مفاهيم جديدة في المجتمع المصري خلال القرن التاسع عشر.

## ٢) الحركات الاصلاحية العربية

### مقدمة: الجذور الأولى

لقد خلت البيئة العربية طوال القرون المتأخرة من محاولات التجديد الفقهي/ الديني. وكانت قد حدثت محاولات وعمليات تجديدية سابقة للعهد العثماني الطويل كمحاولات وأفكار الغزالي وابن تيمية وغيرهما... كما ولابدّ للدارس المؤرخ ان يقف متأملاً آراء وطروحات ابن خلدون وفيما كتبه عن الواقع التاريخي وعن العثمانيين والدويلات التركمانية والانقسامات العربية.

ان غلو العثمانيين في منع عملية «الاجتهاد» الفقهي، واعتبار السلطة عملية الاجتهاد تهمة يعاقب عليها القانون... قد أثر تأثيراً كبيراً في الحياة الفكرية واليومية الاجتماعية للاقاليم العربية، وزادها استرخاء وسكونية، وخمولاً ذهنياً فسيطرت الجبرية والتواكلية والتصوفية... وكانت الارضية صالحة لانتشار الفكر الخرافي، الذي أبعد الأمة عن اداء دورها الحقيقي في البناء الحضاري والانساني.

ويبدو ان البيئة العربية كانت قد عاشت منذ القرن الثالث عشر الميلادي احاسيس بالضعة الثقافية امام الآخرين، عندما صودرت حريتها الفكرية، وغلقت